المبحث الثالث

الآثار الاقتصادية لتصنيف الموارد في القرآن الكريم

فيما يلي عرض موجز لأهم الآثار الاقتصادية التي يحققها أسلوب عرض الموارد في القرآن الكريم :

١ ـ الاهتمام بمصادر الموارد الطبيعية التى تشكل مخزوناً استراتيجياً للموارد المستغلة ، وذلك على عكس التوجه السلبي في الاقتصاد الوضعي ، الذي كان يرى أن الموارد الحرة لا يعتد بها ، فالعبرة لديه بالموارد الاقتصادية التى لها مقابل في الثمن .

٢ ـ كان من أثر عدم الاعتداد بالموارد الحرة في الاقتصاد الوضعي ، إلى التعامل معها بعدم اكتراث ، وبما لا يتناسب مع الأهمية التى تعكسها المنفعة الاقتصادية الكامنة في تلك الموارد ، على خلاف النهج الإسلامي الذي تعامل مع الموارد باعتبارها نعماً وطيبات رزق ينبغى التعامل معها بما يليق بها من المحافظة عليها وشكر الله ﷻ على فضله فيها .

وأشهر الأمثلة على خطورة التغافل عن أهمية الموارد الحره الموارد المائية، والتى أدى التعامل معها كمورد حر إلى عدم مراعاة مقتضيات الاستغلال الاقتصادي الأمثل لها ، والآن وبعد إدراك أهميتها البالغة يكاد العالم يقتتل في القريب العاجل من أجل قطرة إضافية من الماء.

٣ ـ إعطاء الأولوية في الاقتصاد الوضعي للاهتمام بالموارد المستغلة اقتصادياً فقط، أدى إلى إهدار موارد لها أثر في التوازن النوعي وحماية البيئة ، مما انعكس سلباً في مشاكل البيئة التى يعانى منها العالم الآن ، فالهواء الذي يرى فيه الاقتصاد الوضعي أنه من الموارد الحرة غير جديرة بالالتفات ، كان الاهتمام بنقائه وحمايته والحفاظ عليه سيأخذ مجرى آخر فيما لو أجرى التعامل معه بمنطق النعم التى ينبغى الحرص والمحافظة عليها كما جاء بها الذكر في القرآن الكريم .

٤ ـ توازن النظرة الاقتصادية للسكان باعتبارهم ثروة بشرية من خلق الله ﷻ ، بدلاً من اقتصار النظرة إلى السكان من الزاوية الاستهلاكية واعتبارهم عبئاً على التنمية ، وقد نهى الله ﷻ عن التعامل مع الذرية كعبء يخشى من ورائه الفقر ، فقال :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١]

فالثروة البشرية هي المحركة لأوجه الاستفادة من مصادر الموارد الاقتصادية ، فالإنسان هو محور التنمية وهو صانعها .

٥ ـ أعطى الله ﷻ في كتابه الكريم أولوية في الإهتمام بالموارد المائية ، وذلك على عكس الفكر الاقتصادي الكلاسيكي للطبيعيين الذي كان يعطى السبق والأولوية لمورد الأرض الصالحة للزراعة .

ويلاحظ هنا إعجاز اقتصادي بالغ الروعة ، لأن الماء في قيمته الاقتصادية يسبق الأرض بالفعل، وكان الأولى بالاقتصاديين إعطاءها الأولوية المطلقة في الأهمية قبل كافة الموارد ، فالأرض الزراعية مهما بلغت جودتها ،لا قيمة لها بغير الماء الصالح للزراعة، وعلى عكس ذلك فإن الأراضي غير الصالحة للزراعة يمكن استثمارها إذا توفرت لها مصادر المياه المناسبة لها.

٦ ـ تفصيل أوجه الانتفاع من الموارد ، بما يحفز الإنسان إلى البحث عن كيفيه الاستفادة الاقتصادية منها ، كما هو واضح من أسلوب العرض في القرآن الكريم.

٧ ـ لم تتوقف الإشارة إلى أوجه الانتفاع القائمة في الموارد على نحو ما جاء في القرآن الكريم فحسب ، وإنما حفز الله في كتابه الكريم الفكر الإنساني إلى البحث عن أوجه انتفاع أخرى متنوعة من الموارد:

● ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[المؤمنون: ٢١].

والإشارة بتعبير منافع كثيرة بصيغة «نكره» بغير قصرها في إطار التعريف ، يدفع إلى البحث الدءوب عن أوجه منافع متتابعة ، وذلك بما يحقق تناميا مستمرا للانتفاع بالموارد .

٨ ـ الإيعاز بتسخير الموارد لمنافع الإنسان واستخداماته ، كما جاء في قول الله ﷻ :

● ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[النحل: ١٢]

وكما جاء ذكره أيضا في قول الله سبحانه وتعالى :

● ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
[النحل: ١٤]

وتعبير التسخير وخضوع الطبيعة للإنسان ، يعكس إحساساً إيجابياً متفائلاً بالقدرة على الانتفاع الكامل بها ، فيتعامل البشر مع مصادر الموارد وهم على ثقة ويقين من خضوعها لمنافعهم ، وقدرتهم على السيطرة عليها .

وهذا على خلاف توجه الفكر الوضعي إلى إقامة العلاقة مع الطبيعة على أساس فكرة الصراع، التي توجس رهبة ، تجعل الإنسان في حالة مشاكسة وتحفز قتالي مع الطبيعة بصورة أضرت بها في كثير من الأحيان ، على نحو ما يعانى العالم منه الآن من آثار التلوث الناجمة عن عدم التفات الجنس البشرى إلى الأثر المتبادل بين المناخ والموارد الصناعية والزراعية ، فاستئصال الغابات مثلا كان يعتبره الغرب انتصاراً على الطبيعة ، حتى تبين لهم العلاقة بين تنقية الفضاء والمحافظة على الثروة النباتية .

٩ـ الربط بين ذكر بعض الموارد وبعث يوم القيامة ، يدفع الإنسان إلى التدبر الواعى فى تلك الموارد ، بما يعود عليه بالنفع . كما جاء في قول الله سبحانه وتعالى :

● ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]

وقوله جل شأنه :

● ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[الزخرف: ١١].

١٠ ـ من العبادات التي جاء التنبيه إليها بإلحاح في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، التدبر في ملكوت السماوات والأرض ، والنظر في خلق الله ﷻ للاعتبار بقدرته واليقين بعظمة إبداع قدرته ، كما جاء في قول الله ﷻ :

● ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الرعد: ٤].

وقوله جل شأنه :

● ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾[عبس: ٢٤-٣١].

وبلغت القيمة الإيمانية للتدبر أن ساعة واحدة منه تعادل ثواب سنة عباده ، على نحو ما أشار إليه حديث رسول الله ﷺ .

وهذه الدعوة إلى التدبر الإيماني الواعي في خلق الكون بموارده ، تقود الإنسان حتما إلى الكشف عن مكنون منافع النعم القائمة في تلك الموارد ، بما ينعكس إيجاباً على التنمية وزيادة الدخل .

١١ ـ الإشارة إلى التفاعل المتبادل بين الموارد الاقتصادية على نحو يوجه الإنسان إلى عوامل الإنتاجية المتبادلة وتراكم المنفعة المترتب على المزج الفني بين عوامل الإنتاج ، مثل التنبيه إلى علاقة الماء بإحياء الأرض وإنباتها ، وعلاقة الرياح والسحاب بالمطر ونزول الماء .

إذ قال الله ﷻ في كتابه الكريم في إشارة إلى علاقة الرياح بإنزال الماء :

● ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾[الحجر: ٢٢].

وقال سبحانه وتعالى في العلاقة بين الماء و إنبات الأرض :

● ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[النحل: ٦٥].

١٢ ـ الكشف عن جوانب معنوية مؤثرة في النشاط الاقتصادي وتنامي الموارد .. مثل الكيان الأسرى ، والأمن وعلاقته بالنمو الاقتصادي ، كما جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش: ١-٤]

وقوله جل شأنه :

● ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]

١٣ ـ التنبيه إلى تلازم العلاقة بين الالتزام بالقيم الإيمانية الصحيحة، وتحقق مزيد من تنمية الموارد واستقرار إنتاجيتها .

وبغير التزام بالقيم الإيمانية الصادقة ، فإن انتشار الظلم بأشكاله يرتب حقداً اجتماعياً واستنفاراً لروح الصدام الطبقي ، وشيوع الفاحشة على نحو يدمر الكيان الإنساني ويفتك بالقوى البشرية المنتجة ، وشيوع روح الدعة والمبالغة في التنعم والترف بشكل قد لا يتناسب مع أولويات التوجه في النشاط الإنتاجي، كل هذه وغيرها تنعكس آثارها سلبا على عدم استقرار الكيان الاقتصادي للمجتمع ، الذي هو في النهاية جزء من الكيان الاجتماعي.

وفي المقابل ، جاءت الإشارة صراحة عن أثر الالتزام الإيماني الصادق في زيادة كفاءة استخدام الموارد في أكثر من موضع من كتاب الله ﷻ .

وتفصيل ذلك سيكون موضع بحث مستقل حول الآثار الاقتصادية للالتزام الإيماني .

١٤ ـ إطلاق صفة النعم على الموارد ، والدعوة إلى شكر الله ﷻ امتنانا على فضله فيها ، يدفع بالإنسان إلى إعلاء قيمة الموارد وأهميتها ، وإثارة الحرص على تنميتها والحرص عليها .

كما جاء في قول الله ﷻ :

● ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[لقمان: ٣١].

وقوله سبحانه جل شأنه :

● ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾[الزخرف: ١٢-١٣]

والجنة من التعبيرات الإيمانية الموحية بنعيم لا نفاد له في الآخرة ، أطلق الله ﷻ على الحدائق الزراعية تسمية الجنة في أكثر من موضع من القرآن الكريم ، بما يحمل إلهاما ربانيا بالقيمة الاقتصادية العالية للموارد الزراعية وأولوية أهميتها

● ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾[الكهف: ٣٢].

● ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [القلم: ١٧]

١٥ـ النظرة الشمولية للثروة الاقتصادية على المستوى القومي ، وعدم اقتصار النظر إلى تلك الثروة من الزاوية الأحادية لملكية الفرد ، حيث جاء التعبير القرآني في قول الله عزوجل :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[النساء: ٥].

وكلمة أموالكم لها دلالة موحية بأن المال وإن كانت ملكيته تبدأ بالفرد، إلا أن له وظيفة اقتصادية مؤثرة تعود بالنفع على الكيان الاجتماعي بأسره ، وهذا يعكس الوظيفة الاجتماعية للملكية التي لا يضاهى مثلها أيا من الفكر الإنساني المعاصر .

١٦ ـ جاء التنبيه إلى أهمية ومسئولية النشاط الإنساني المنتج في تحقيق الاستفادة من الموارد .. كما في قول الله ﷻ :

في تنمية الثروة الزراعية :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾[الواقعة: ٦٣-٦٤]

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣-٣٥]

وكما جاء في التنبيه إلى بعض المنافع الاقتصادية المستخلصة من النخيل والأعناب :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[النحل: ٦٧].

كما وردت الإشارة أيضاً، إلى تعدد المنافع المستخلصة من الثروة الحيوانية ، وترك التفصيل بشأنها للجهد الإنساني في البحث عن الموارد والكشف عن مصادرها .. كما جاء في قول الله ﷻ :

● ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١-٧٣]

١٧ ـ التنبيه إلى موارد اقتصادية كامنة في مصادر لم تكتشفها الإنسانية إلا حديثاً ، مثل الموارد الفضائية وموارد الطاقة الشمسية وغيرها .

١٨ ـ الإشارة إلى خاصية التكاثر النوعي المتتابع في الموارد والكائنات :

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يس: ٣٦].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الرعد: ٣].

وخاصية تكاثر الموارد على نحو يتضاعف مع كل مرحلة من مراحل إنتاجيتها، يلغي النظرة المتشائمة التي تعاملت مع الموارد بادعاء عدم قدرتها على التجاوب مع الزيادة السكانية.

فالقرآن هنا يحدثنا على عكس ذلك، والعبرة بكفاءة التعامل الإنساني مع الموارد وحسن استغلالها والمحافظة على مصادرها بما يعيد إليها التوازن النوعي الذي يتناسب مع النمو السكاني[1].

١) الدكتور راشد البراوى – المرجع السابق – ص ٦٦